المحاضرة الثانية:

الاتجاه التاريخـــي في الرواية العربية

- ## 1- مفهوم الروايــة التاريخية:

الرواية التاريخية ضرب من الرواية يمتزج فيه التاريخ بالخيال، تهدف إلى تصوير عهد من العهود أو حدث من الأحداث الضخام بأسلوب روائي سائغ مبني على معطيات التاريخ، حيث لعبت الرواية التاريخية في الأدب العربي دورا بارزا في تحقيق أهداف سعت إلى بلوغها، فقد هدفت إلى بث الروح في الماضي من أجل قراءة الحاضر واستشراف المستقبل والاستفادة منه عبر التاريخ. وإذا كان التاريخ يعرف بأنه: الأحداث والوقائع التي وقعت في الأزمان الماضية، فالرواية التاريخية كما يعرفها الدكتور محمد القاضي، هي " نصّ تخيّلي نسج حول وقائع وشخصيات تاريخية."

أما عند الكاتب سعيد يقطين فالرواية التاريخية هي" :**عملٌ سردي يرمي إلى إعادة بناء حقبة من الماضي بطريقة تخيّلية حيث تتداخل شخصيات تاريخية مع شخصيات متخيلة.**"

فالمادة التاريخية تحضر بقوة في الرواية التاريخية، ولكنها غير جامدة، بل تقدم بطريقة فنية وإبداعية، لذلك الذين درسوها يلجؤون إلى المقارنة بين السرد التاريخي والرواية التاريخية مفرقين بينهما من جهة الحقيقة والخيال. فالسرد التاريخي يقدم الحقيقة ويسرد الأحداث المطابقة للوقائع، بينما الرواية التاريخية أقرب إلى التخيل و الإبداع.

2- عوامل ظهور الرواية التاريخية :

- التأثر بالقصص التاريخية الرومانسية الانجليزية والفرنسية، على طريقة "والتر سكوت" و"الكسندر دوماس الأب"، حيث عزب بشارة شديد توماس الأب " دي مونت كريستو " ونشرها في القاهرة عام 1871 وكذا عرّب الحداد رواية " الفرسان الثلاثة " عام 1888.[1]

- اضافة إلى ذلك الاستعداد التام للروائيين العرب في المرحلة الأولى من تجريب الكتابة الروائية إلى العودة إلى التاريخ العربي للتعزير بعد اجتياح المد الغربي .

- من الأسباب أيضا التي دفعت العرب إلى كتابة الرواية التاريخية في مرحلة مبكرة هو محاولة الامتداد مع طبيعة المسرودات الموجودة سابقا كالسيرة الشعبية والمقامة لما فيهما من مغامرة و ادهاش للقارئ وقصص بطولة وغيرها، فحاولت الرواية التاريخية أن لا تصدم القارئ مباشرة وأن تراعي ذوقه الذي لم يتطور بشكل ملحوظ بعد.

3- أعلام الرواية التاريخية:

قسم الباحثون الروايات التاريخية العربية إلى ثلاثة أجيال، وهذا من منطلق اختلاف . الرواية التاريخية بينهم.

3-1 - من أهم الروائيين في مجال الرواية التاريخية في الجيل الأول :

* **سليم بطرس البستاني :** (1884-1848) هو ابن بطرس البستاني صاحب عدة جرائد ومجلات منها مجله "الجنان" التي كان ينشر فيها سليم البستاني. ولقد رائدا في كتابة القصة وهو من الأوائل الذين كتبوا القصة التاريخية، تذكر منها : زنوبيا ملكة تدمر 21873 بدور 1872، الهيام في ربوع الشام 1874، الإسكندر، قيس وليلي .

* **فرح أنطوان :** نشر قصصا اجتماعية من قبل، وتتناول روايته التاريخية "أورشليم الجديدة" أو فتح العرب لبيت المقدس 1904، زحف العرب المسلمين على بلاد الشام وحصارهم ببيت المقدس، ثم سفر الخليفة عمر بن الخطاب ليتسلم مفاتيحها من البطريرك صفرونيوس، وفي الرواية شرح أسباب

[1] الصادق قسومة، الرواية، مقوماتها، ونشأتها في الأدب العربي الحديث، مركز النشر الجامعي، تونس، دط، 2000، ص: 81، 82.

ضعف الإمبراطورية الرومانية، لكن الرواية لم توثر كثيرا لأنها تناولت نزعات ومشاكل اجتماعية غربية لا علاقة لها بالمجتمع العربي.[2]

* **يعقوب صروف:** كان قد نشر قصصا اجتماعية من قبل ويتحدث في روايته التاريخية در لبنان " 1907 عن الفتنة التي وقعت في 1860 بين الدروز والمارونيين بتحريض من الدولة العثمانية و السيطرة على البلاد في ذلك الوقت، ويتخلل القصة حدث غرامي يقع بين هر ماري برمونت والأميرة سلمى ابنة الأمير عباس الشهابي[3] .

* **-جرجي زيدان :** (1861-1914) ، هاجر إلى مصر ونشط فيها عام 1881 ، صاحب مجلة الهلال بمصر ، أصدرها عام 1892 ثم أنشأ دار نشر بالاسم نفسه (الهلال) ، له زخم كبير من المنشورات في الصحافة والتاريخ الأدب ، له اثنان وعشرون رواية من بينها رواية اجتماعية واحدة وهي " جهاد المحبين " ، أما رواياته التاريخية فهي : المملوك الشارد 1891 ، أسير المتمهدي 1892 ، استبداد المماليك 1892-1893 ، أرمانوسة المصرية 1895 1899 ، 17 رمضان 1900 ، غادة كربلاء 1901 ، الحجاج بن يوسف 1902 ، فتح الأندلس.1903 [4]

-خصائص الكتابة التاريخية لدى الجيل الأول :

- تفتقر هذه الروايات إلى الوحدة الفنية داخل الوحدة التاريخية للموضوع المعالج ، فقد كان نشاط الكاتب يرتكز بالأساس على قدرته بالخروج من فكرة إلى أخرى بحيوية من أجل إرضاء ذوق الجمهور ووضعه في حالة مريحة ليقضي وقته بها[5].
- غالبيتها عادت إلى أحداث من التاريخ العربي الإسلامي
- إدخال قصص الحب والمغامرة في متن الأحداث والتركيز عليها وغالبا ما تنتهي بالانتصار للحب وتكون النهايات سعيدة - الإسهاب في عنصر التشويق بالتماطل في السرد والوصف لإحداث عنصر المفاجأة .
- عدم ترك الحرية للشخصيات ، حيث يشعر القارئ أنها محركة ومقيدة من طرف الكاتب ولا تنفلت من بين يدبه .
- تهدف " هذه الروايات إلى جانب هدفها التعليمي ، إلى تسلية القراء وتفكههم بأحداث مشوقة وأخلاق تنطري على قيمة نفعية.[6]

"مثلا كانت روايات جرجي زيدان روايات ذات صبغة واحدة، فالمؤلف يختار موضوعات وشخصيات ذات شهرة تاريخية، ويقيم من خلالها أحداث روايته التي تكون مقيدة بالأماكن التاريخية وبالأحداث والشخصيات التاريخية كذلك، وذلك في إطار موضوع غرامي تقف فيه العوائق بين العاشقين، ثم تزول ويجتمع الشمل مع اقتراب الموضوع التاريخي من نهايته.

وهكذا " هدف جرجي زيدان ومن سار على منهجه أمثال عبد المسيح الأنطاكي ، وعبد الحميد الزهاوي ، ومعروف الأرناؤوط في سوريا إلى أن يكونوا معلمي تاريخ يهتمون في دراستهم بالتاريخ باعتباره أحداثا تدور داخل إطار حضاري[7].

2-3 - أعلام الجيل الثاني للرواية التاريخية :

" قدم فريد أبو حديد وعلي الجارم ومحمد سعيد العربان ومحمد عوض وعادل كامل وعبد الحميد جودة الحار، وعلي أحمد باكثير ونجيب محفوظ عددا من الروايات التاريخية التي استوحت من التاريخ

---

[2] المرجع نفسه، ص: 80، 81
[3] المرجع السابق، ص: 82-83.
[4] المرجع نفسه، ص: 87-99.
[5] المرجع نفسه، ص: 83
[6] السعيد الورقي، اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، ص 30.
[7] المرجع نفسه، ص: 32.

الإسلامي العربي والتاريخ الفرعوني المصري ، وتفاوتت أعمالهم على حسب فهمهم لتوظيف التاريخ في هذه الأعمال"[8]

- فبالرغم من أن موضوع رواية عبث الأقدار لنجيب محفوظ موضوع ملحمي يتناول صراع الإنسان مع القدر، إلا أننا نرى فيها ملكا يتمتع بديمقراطية فكرية عالية تجعله يعجب بالطفل الذي تنبأت العرافة له من قبل بأنه سيقتله، بل أكثر من هذا يتنازل له عن العرش حيث رأه أجدر منه . وقد جاءت الرواية مرتبطة بظروف البلاد التي كانت تحكم أنذاك بديكتاتورية متسلطة مستبدة.[9] .

- خصائص الكتابة التاريخية عند الجيل الثاني:

" -اهتم الجيل الثاني من كتاب الرواية التاريخية بإحياء الماضي القديم، متأثرين في هذا أكثر بالرواية التاريخية التي تعرفت عليها أوربا في الفترة الرومانسية في مؤلفات" والتر سكوت " الإنجليزي و " الكسندر دوماس الأب الفرنسي.[10]

- فيها حس قومي .

- متطورة فنيا عن رواية الجيل الأول ، تجد مثلا علي أحمد باكثير و محمد عوض وعادل كامل يحاولون تصوير انعكاس الأحداث التاريخية على الشخصيات كنماذج بشرية، و بالتالي أثرها في تطوير الحدث الروائي وإنمائه .

وعلى هذه الملاحظة الأخيرة قامت روايات نجيب محفوظ التاريخية الثلاثة: عبث الأقدار 1939، رادوبيس 1943، وكفاح طيبة 1944، فموضوعات الروايات الثلاث لها إسقاطات على الواقع المعاصر لها.[11] ومن هذا كان التاريخ في رواياته إطارا لهذا المعنى الذي تمشى مع احتياجات مرحلته من ناحية وأزمة حياته الخاصة والعامة من ناحية أخرى ثم الخروج به إلى الشمولية العامة الملتصقة بكل ما هو إنساني من ناحية ثالثة".[12]

وبهذا يكون الاتجاه التاريخي للرواية العربية قد قطع مرحلتين إلى أن نضج فنيا بالرغم من كون روايات جرجي زيدان هي الروايات التاريخية الأشهر عربيا إلا أنها تبقى ضمن المرحلة الأولى التي أسست للاتجاه التاريخي، لكنها كانت ناقصة فنيا، وتعود شهرتها إلى غزارة الانتاج التاريخي الروائي لدى جرجي زيدان وخلو الساحة وقتها من الرواية تقريبا، وأيضا الى اهتمامها بالشخصيات في التاريخ الإسلامي.

3-3-الرواية التاريخية الجديدة (الجيل الثالث):

كتبت الرواية العربية التاريخ المعاصر الذي لم يكتبه المؤرخون، متطلعة إلى تاريخ سوي محتمل وحالم، تقدّم فيه الرواية إجابات بقدر ما تطرح أسئلة، ومن أجل ذلك غدت الرواية " عملية استبطان مستمر لاستجلاء اللحظات التي ينشق فيها الإنسان عن ذاته ويحاور أشياءه بعيدا عن جوهره الإنساني العصي عن الثبات .

هذه المرحلة تمثل مرحلة الرواية الحديثة، حيث عاد كتاب الرواية الى التاريخ باعتباره مسلكا تجريبيا، ومثّـل هذا المنحى كل من جمال الغيطاني ويوسف العقيد في مصر، واسيني الأعرج و رشيد بوجدرة و الحبيب السايح والطاهر وطار في الجزائر، وبن سالم حميش والميلودي شغموم في المغرب .

وقد اعتمد هؤلاء على استثمار المادة التاريخية من منظورهم الخاص، محاولة منهم إسقاط الماضي على الحاضر على أساس الاستمرارية .

وكل من هؤلاء انتهج طريقا خاصا به في استثمار المادة التاريخية، ليصبح التخييل التاريخي ناتجا عن العلاقة المتفاعلة بين السرد المعزز بالخيال والتاريخ المدعم بالوقائع، فانتقلت الرواية من تعليمية الى نفعية الى مساءلة وإعادة كتابة لتفضح ماسكت عنه التاريخ، سردا تاريخا آخر على لسان شخصيات تنتمي للهامش، ولا تؤرخ للمنتصر أو للسلطان.

---

[8] المرجع نفسه، ص: 31-32

[9] المرجع السابق، ص: 33.

[10] المرجع نفسه، ص: 32.

[11] المرجع السابق، ص: 33

[12] المرجع السابق، ص: 34

4- أعلام الرواية التاريخية الجزائرية المعاصرة:

لقد استطاعت الرواية الجزائرية أن تفرض نفسها وتحقق كينونتها سواء في سبقها وجوديا – مع أول نص روائي "الحمار الذهبي" لصاحبه لوكيوس أبوليوس قديما ومرورا بالعمل الروائي "إدريس" لعلي الحمّامي ووصولا الى الرواية الحديثة والمعاصرة سواء المكتوبة باللغة العربية أو الفرنسية، مع الطاهر جاووت "رواية اختراع القفار" أو ما كتبه كل من الطاهر وطار وابن هدوقة و واسيني الأعرج في "كتاب الأمير "أو حبيب السايح في "كولونيل الزبربر" – أو بحثا عن المضامين التاريخية والفلسفية والاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري عبر محطات تاريخية هامة و متباينة، ناهيك عن النقلة النوعية والفنية التي امتازت بها الكتابة السّردية في الجزائر ومن بين الذين أبدعوا في هذا المجال نذكر:

***واسيني الأعرج (كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد)**

يعد واسيني من أبرز الروائيين الجزائريين وهو أكثرهم قربا من حرب فترة حرب التحرير، وهذا ما جعله يستلهم التاريخ الوطني ليجعل منه مادة روائية بامتياز. فتوظيف التاريخ عنده ليس عشوائيا؛ بل ملمحا من ملامح التجريب (وقد بلغ واسيني قمة التاريخ محاولا مزج المكون التاريخي بالمكون الروائي ،إن قوة واسيني التجريبية التجديدية تجلت بشكل واضح في الروايات الأخيرة التي يكتبها ويحاول من خلالها مساءلة التاريخ، مما يثير جدلا نقديا كبيرا، إذ ثمة فارق بين التاريخ والمتخيل. وهذه الرواية (كتاب الأمير) أثارت كثير من الجدل في الأوساط الأدبية والنقدية (وهي ليست الأولى التي استقت مادتها من التاريخ ولكنها أول رواية نالت السبق في الكشف عن بعض الحقائق المنسية في حياة شخصية الأمير عبد القادر الجزائري.

ولقد استطاع "واسيني الأعرج" أن ينقل لنا صورة حية للواقع الأليم الذي واجهه الأمير عبد القادر الجزائري ومعاناته النفسية أيام الجهاد، ومعاناته أيام الأسر، يقول واسيني عن كتاب الأمير ما أردت قوله في هذا العمل أن مسألة التسامح الديني موجودة، وقد لعبت دوراً كبيراً في العلاقات الصحيحة بين مختلف الطوائف والمذاهب. وفي الحقيقة إن كتابة هذه الرواية جاءت نتيجة مجموعة من التساؤلات حول سؤال الأديان، وسؤال حوار الحضارات. مؤكداً فيها على حوار الحضارات الذي يتم حتى في أصعب الظروف، والرواية كلها مبنية في هذا السياق.

***الحبيب السايح (رواية كولونيل الزبربر)**

يتبوأ إنتاج الحبيب السايح الروائي مكانة كبيرة عند الدارسين والنقاد، ولم يكن السايح في منأى عن تاريخ الجزائر انطلاقا من الثورة ومرورا بالعشرية السوداء ووصولا إلى إسقاط ذلك كله على الواقع المعيش مستدعيا ومسائلا التاريخ زمانا ومكانا وأحداثا وشخصيات..

وفي الفعل الكتابي للتاريخ يرى السايح أنه ليس تسجيلا للواقع، بل هو نص مختلف نابع من موقع فكري وتاريخي تجاه محنة الجزائر، لذلك لم تكن الرواية سوى نصا يصور واقعا آخر مختلفا. ففي رواية" كولونيل الزبربر" يجمع الحبيب السايح بين ذاكرتين ذاكرة التاريخ وذاكرة الجغرافيا في سرد هذه الرواية الزبربر المكان الذي كان ابان الثورة معقلا لجيش التحرير (1954م – 1962 م)، يصبح مركزا لكتائب الجامعات المسلحة 1992م .

تعرض الرواية مشاهد تاريخية كبرى على غرار 01 نوفمبر واندلاع الثورة ، إضراب الطلبة 19 ماي 56 ،احداث 1958 معركة الحدود (خطي شال وموريس)، حادثة نقل الأسير انطوان ،استشهاد زيغود يوسف 1956/09/25، استشهاد سي مسعود شيهاني 1955/10/25 ومقتل بن بو العيد 1956/03/22 ، واستشهاد عباد رمضان 1957/12/26 .(مفاوضات بين الوفدين الجزائري والفرنسي) ثم الاستفتاء فالاستقلال. ثم إعدام العقيد شعباني. أما بالنسبة لكولونيل الزبربر فقد عاش هو كذلك ذكريات في جبل الزبربر محاولا القضاء على الجماعات المسلحة.

هذه الرواية هي أول نص روائي يتجرأ على المسكوت عنه في حرب التحرير والعشرية السوداء فجبل الزبربر يحمل الكثير من أسرار حرب التحرير والعشرية السوداء، فالسايح يتعرض الى بعض التفاصيل التي لم يذكرها التاريخ ، تعكس اخطاء وتجاوزات فيقدم صورة جديدة واقعية عنها ، حيث أن البطل (بوزقرة)عاش جحيم الثورة وذاق مرارة الخيانة.

خاتمة وعليه يمكن القول، أنه توجد علاقة وطيدة بين الأدب والرواية والسّرد التاريخي، لا يفصل بينها سوى شعرة رهيفة تمنح لكل منها اختصاصه وخصوصيته، فالرواية مهما كان طابعها فهي لا تسرد سوى التاريخ ، مادامت لا تستطيع الاستغناء عن الزمان والمكان والشخصيات والأحداث، وما التاريخ إلا تلك العناصر المكونة للسرد وهي أي الرواية بدون ذلك رؤى فكرية وفلسفية مجردة : وعلى العموم إن الرواية في محاورتها للتاريخ تحاول:

- إثارة الحاضر استنادا الى ما حدث في الماضي.

تهدف إما الى منح تلك القداسة إلى ذلك الماضي الذي لا تراه إلا مجيدا، وإما إلى نقده وتبيان ما أغفله التاريخ أو تجاوزه أو لم يمنحه حقه باعتبار أن التاريخ يكتبه المنتصر. و منه فإن الرواية تحاول فهم بعض ما يعتمل راهنها استنادا إلى ما عاشته في ماضيها.